

روح المعاني

إبراهيم عليه السلام بعد الرد على أهل الكتاب فيما سبق من الآيات والعود إلى ذكرهم بعد خطب جليل وشأن خطير لتلك العبادة العظيمة وأستأنس بعضهم لكونه عبادة عظيمة بأنه من الشرائع القديمة بناء على ما روى أن آدم عليه السلام حج أربعين سنة من الهند ماشيا وأن جبريل قال له : إن الملائكة كانوا يطوفون قبلك بهذا البيت سبعة آلاف سنة وأدعى ابن إسحاق أنه لم يبعث إلا تعالى نبيا بعد إبراهيم إلا حج والذي صرح به غيره أنه ما من نبي إلا حج خلافا لمن أستثنى هودا وصالحا عليهما الصلاة والسلام وفي وجوبه على من قبلنا وجهان قيل : الصحيح أنه لم يجب إلا علينا وأستغرب وأدعى جمع أنه أفضل العبادات لإشتماله على المال والبدن وفي وقت وجوبه خلاف فقيل : قبل الهجرة وقيل : أول سنيها وهكذا إلى العاشرة وصح أنه في السادسة نعم حج صلى الله عليه وسلم قبل النبوة وبعدها وقبل الهجرة حججا لا يدري عددها والتسمية مجازية بإعتبار الصورة بل قيل ذلك في حجة الصديق رضي الله تعالى عنه أيضا في التاسعة لكن الوجه خلافه لأنه صلى الله عليه وسلم لا يؤمر إلا بحج شرعي وكذا يقال في الثامنة التي أمر فيها عتاب بن أسيد أمير مكة وبعد ذلك حجة الوداع لا غير قل يأهل الكتاب لم تكفرون بإيات الله خاطبهم بعنوان أهلية الكتاب الموجبة للإيمان به وبما يصدقه مبالغة في تقبيح حالهم في تكذيبهم بذلك والإستفهام للتوبيخ والإشارة إلى تعجزهم عن إقامة العذر في كفرهم كأنه قيل : هاتوا عذرکم إن أمکنکم .

والمراد من الآيات مطلق الدلائل الدالة على نبوة رسوله صلى الله عليه وسلم وصدق مدعاه الذي من جملته الحج وأمره به وبه تظهر مناسبة الآية لما قبلها وسبب نزولها ما أخرجه ابن إسحاق وجماعة عن زيد بن أسلم قال : مر شماس بن قيس وكان شيخا قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين شديد الحسد لهم على نفر من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه فغاطه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال : قد أجمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد والله ما لنا معهم إذا أجمع ملؤهم بها من قرار فأمر فتى شابا معه من يهود فقال : أعمد إليهم فأجاس معهم ثم ذكرهم يوم بعث وما كان قبله وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار وكان يوم بعث يوما أقتلت فيه الأوس والخزرج وكان الطفر فيه للأوس على الخزرج ففعل فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواءم رجلان من الحيين على الركبأوس بن قيطي أحد بني حارثة من الأوس وهبار بن صخر أحد بني سلمة من الخزرج فتناولوا ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئت والله رددناها الآن وغضب

الفريقان جميعا وقالوا قد فعلنا السلام السلاح موعدكم الظاهرة والظاهرة الحرة فخرجوا إليها وأنضمت الأوس بعضها إلى بعض والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين الله الله أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ هداكم الله تعالى إلى الإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية وأستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارا فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان وكيد لهم من عدوهم فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا وعانق الرجال بعضهم بعضا ثم أنصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سامعين مطيعين قد أطفأ الله تعالى عنهم كيد عدو الله تعالى شماس وأنزل الله تعالى في شأن شماس وما صنع قل يا أهل الكتاب لم تكفرون إلى قوله سبحانه :